الآنية الصينيَّة والخزفيَّة في البلاد الشرقية

للاب لويس شيخو اليسوعي

بين الاجسام التي تراها متوفرة في الطبيعة الصلصالُ وملحقاتهُ ويتركب الصلصال من سليكات الألومين وهي مادَّة بيضاء دقيقة ناعمة يصعبُ تذويبها واذا كان الصلصال مدوفًا بالماء صار شبه العجين متلاصقًا ليِّنًا كثير المرونة يسهل شغلهُ ومنهُ تُصطنَع الآنية الخزفيَّة باصنافها . على انَّ الصلصال وحدهُ اذا شُوي بالنار تقلَّص وحدثت فيهِ شقوق وفتوق تُفضي الى كسر الآنية لولا خلطهُ بموادَّ أُخرى كالرمل والصوَّان والطباشير وسلفات الكلس وغير ذلك ممَّا يزيدهُ صلابةً ويجعلهُ في الوقت عينهِ اصعب شغلًا واكثر نخورًا

والخزفيَّات تُطلى عادةً بغشاء او مدهون يمنع ارتشاح الموائع منها ويصقلها في الخارج صقلًا حسنًا . ويكون هذا الطلاء امَّا خاليًا من الالوان شفَّافًا يتَّخذ للآنية الناعمة او سميكًا مارًّا للخزفيَّات العاديَّة

وقد اشتهر بين الخزفيَّات نوعان : الخزف الصينيّ والخزف المطليّ . فالخزف الصينيّ يتألف من صلصال غاية في النعومة اذا أُعملت فيهِ النار اثَّرت في تركيبهِ حتى اكتسب بعض خواصّ الزجاج . امَّا الخزف المطليّ فانَّهُ المعروف ببلادنا بالقاشاني وهو يصبغ بالالوان الزاهية

واصل صناعة الصينيَّات والقاشاني كليهما من الشرق قد ذهب الصينيُّون الى انَّهم سبقوا الشعوب الى اتخاذ الآنية الصينيَّة الفي سنة قبل المسيح لكنَّ المؤرخين الأثبات منهم يعتزون لاختراع هذه الصناعة اوَّل عهد دولة « هان » التي ملكت السنة ٢٠٦ قبل المسيح ثمَّ اخذت هذه الصناعة في التحسُّن الى ان بلغت اوج كمالها في القرن الخامس عشر في ايَّام الملك تشين هوانغ (١٤٦٥—١٤٨٨) والآنيات المصطنعة في ذلك العصر يتفاخر بها الى الآن اصحاب الثروة وتُباع باسعار غالية ثمَّ تقهقرت تلك الصنعة مدَّة وعادت الى زهوها في القرن السابع عشر ثمَّ أُهملت بعد ذلك وكسدت سوقها

وكان البنادقة قد نقلوا الى ايطالية في القرن الرابع عشر قطعًا من الآنية الصينيَّة

تاجروا بها بين مواطنيهم فسعى كثيرون بتقليدها منهم صَنعة مدينة فلورنسة تمكّنوا من اصطناع اصناف من الخزفيّات كانت شفّافة تشبه نوعاً آنية الزجاج . وكذلك الفرنسويون في القرن السابع عشر توصّلوا الى اختراع ما عُرف بالصينيّات اللينة كانوا يتّخذونها من موادّ قلويّة يزجونها بالرمل والصوّان . وقد اشتهر في ذلك معمل سيڤر في باريس ومصنوعاتهُ لا تزال حتى يومنا هذا معدودةً من اتمّ واجمل الآثار الصناعيّة

لكنّ هذه الاكتشافات مع حسنها وخواصّها الممتازة لم تبلغ في بهائها ورونقها الآنية المصطنعة في الصين لأنّ الاوربيين لم يعرفوا الصلصال الابيض الذي كان يدخل في تركيبها . وهذا الصلصال المسمّى كاولين وُجد لاوّل مرّة في الماية سنة ١٧٠٩ فشاع بعد قليل في الماية والنسة وأُنشئت معامل عديدة لاصطناع الصينيّات . ثم ظهرت في فرنسة عدّة مناجم من الكاولين فجارى الفرنسويون الالمانيين وغلبوهم في بهاء مصنوعاتهم وبقي لهم السبق حتى ايّامنا هذه كما تشهد على ذلك معامل ليموج وبورج وباريس وشهرتها بالغة سواء كانت من جنس الصينيّات البيضاء او من الضروب المطليّة الملوّنة او من الانواع الفاخرة المزيّنة بالنقوش . وقد صدر منها في السنة ١٩٠٣ الى خارج فرنسة ما يساوي ٢٢,٤٢٦,١١٤ فرنكاً

وعُرفت المصنوعات الصينيّة في انحاء الشرق قبل شيوعها في بلاد الغرب فانّ اليابانيين اخذوها من الصينيين واحرزوا لهم في اصطناعها اسماً طيّباً . وكذلك اهل العجم فانّهم عُرفوا في كلّ الازمنة بحذقهم وتقدّمهم في الاعمال الصناعيّة فصرفوا عنايتهم الى تقلّد الصينيّ فبلغوا من ذلك الغاية حتى انّ الرحّالة الفرنسويّ شردين (Chardin: *Voyages en Perse*, VIII, 94) وجد في القرن السابع عشر في اسواق اصبهان من الصينيّ المصنوع في مدينتي كرمان ومناجرد ما لا يفرّقهُ النظر عن الصينيّ المبيع في الصين وفي اليابان حتى ان تجار هولندة كانوا يبيعون آنيتهم بصفة الصينيّ الصحيح . لكنّنا لا نعلم اكان يدخل في تركيب مصنوعات العجم فخّار الكاولين كما في الصين . وكان الصينيّون انفسهم يحافظون على سرّ تركيب الصينيّ اشدّ المحافظة ضنّاً بارباحهِ وكانت صناعتهُ منحصرة في بعض حواضر الصين قال ابن بطوطة في رحلته (طبعة باريس ٤ : ٢٥٦) : امّا الفخّار الصينيّ فلا يُصنع منهُ الّا بمدينة الزيتون وفي صينكلان وهو من تراب جبال هناك تُقد فيها النار كالفحم . ويضيفون اليه حجارة عندهم

(يريد حجارة الفلدسپاث والكوارتز) ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثمّ يصبّون عليها الماء فيعود الجميع تراباً ثمّ يختبرونهُ فالجيّد منهُ ما خُمر شهراً كاملاً ولا يُزاد على ذلك والدون ما خُمّر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخّار ببلادنا او ارخص ثمناً ويُحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو ابدع انواع الفخّار»

هذا ومن العجب انتشرت صناعة الصيني في البلاد المجاورة . ومثن عاناها اهل بغداد واهل دمشق . وكان لاهل مدينة ازنيق وهي نيقية القديمة في بيثينية قدم متقدّمة وشهرة متمدّدة في صُنع الآنية الصينيّة وكان بعضهم في دار السلطنة يشتغلون بعملها منذ القرن السادس عشر وكانوا يُدعَون «چين فروشانى» اي صَنَعة الصينيّ

*

وان اعتبرنا الآن الخزفيّات الملوّنة التي تُعرف بالقاشاني وجدناها على صنفين: صنف منها بسيط يتركّب من الفخّار المختلط بالحديد اذا شُوي احمرّ وهو يُطلى بمركّب قصديري ابيض سميك وصنف فاخر يُصطنع من موادّ انقى وانعم اذا شُوي ابيضّ وكان صالحاً لأن يُصبغ بدُهون شفّافة واصل هذه الخزفيّات المطليّة متوغّل في القدم فأن الاثريين قد وجدوا في حفريّات بابل ونينوى وشوشن قطعاً من هذا الفخّار المنقوش ترتقي الى نحو الفي سنة قبل المسيح وهي اليوم تزين متاحف باريس ولندن . وفي متحف الاستانة الملكيّة ناووس بابلي من الخزف مطلي بميناء خضراء

وقد عرف اليونان والرومان الخزفيّات الملوّنة كما يظهر من الآثار المكتشفة في مدن ايطالية وفي الحواضر اليونانيّة الّا انّ هذه الصناعة توارت في الغرب مع ظهور قبائل الشمال وغزوات البرابرة فلم يبقَ منها الّا بعض البقايا التي لا تتجاوز الآنية البيتيّة الخالية من كلّ تأنّق حتى حصلت نهضة الآداب والصنائع في القرن الرابع عشر فسبق اهل الاندلس الى تزيين الخزفيّات وتنقيشها ودهنها بالدهون الميناويّة وكان لهم في سنة ١٣٥٠ معامل كثيرة منها معمل مالقة وصفهُ ابن بطوطة لمّا رحل اليها من طنجة ثم امتدّ هذا الفنّ الى ايطالية ونشطهُ الاحبار الرومانيّون في رومية العظمى واشتهرت في اصطناع الخزفيّات البديعة الاشكال مدينة فايزة حتى عُرفت تلك المصنوعات باسمها فدُعيت فاينسة (faïences) ولم يلبث الفرنسيّون ان يجاروا اهل ايطاليا في الاعمال الفخّاريّة الملوّنة فبرّزوا باصطناعها واخترعوا تركيبات جديدة رقّت هذه الصناعة

ترقية عظيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فزُينت بمصنوعاتها الكنائس والقصور ولو اردنا وصف ما خرج من معمل مدينة روان وحدها لاقتضى الامر مجلدات واسعة وصار لهذه المدينة من الشهرة ما أنست غيرها من المدن بخزفياتها التي كان يسعى بتقليدها الكثيرون. واجتهد ايضاً الالمان والانكليز في مباراة الفرنسويين فاصابوا بعض النجاح

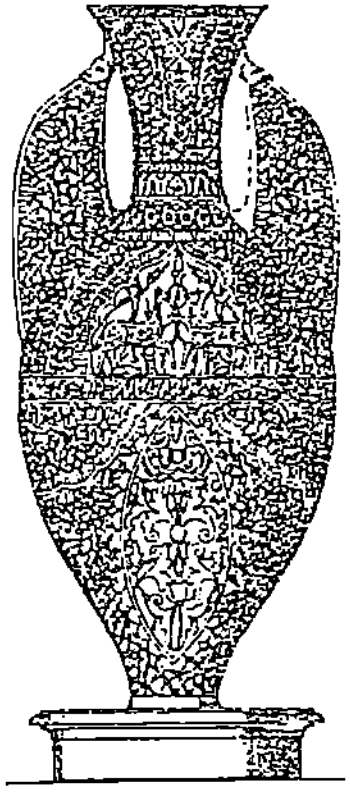

اناء من الخزف الملوّن وجد في قصر الحمراء

على انّ الشرق قد امتاز في تلوين الخزفيات في كلّ عصر فكأنّ البابليين اورثوا هذه الصناعة اهل العجم الذين افرغوا في تحسينها كنانة الجهد وقد خلّفوا لنا من الاعمال والابنية المحلّاة بهذه المصنوعات الغريبة البديعة الالوان والجميلة النقوش. واصابت مدينة قاشان قصبة السبق في ذلك ومنها اشتقّ العرب اسم القاشاني للأعمال الخزفيّة الزاهية

وكان اهل الشام من الروم يتقنون شغل الفخّار ونقشه وتلوينه ومن آثارهم الجامع الامويّ في دمشق والمسجد الاقصى في القدس الشريف فانّ ما يزينهما من قطع القاشاني المزخرفة الناصعة الالوان يشهد لصنّعة ذلك العهد بالمهارة في العمل. وقد اشتهر في سوريّة مدينتا دمشق وحلب بحسن شغل اهلهما للفخّار وتزيينه بالنقوش وتلوينه. لكنّ تيمورلنك في غرّة القرن الخامس عشر اضرّ بتلك الصناعة لمّا اخذ معهُ عمّلة الفيحاء ليستخدمهم في اعماله

وكذلك في جوامع مصر ومعاهدها العربيّة كثير من المصنوعات الخزفيّة المنقوشة يرتقي بعضها الى القرون المتوسّطة

وللدولة العثمانية الايادي البيض في ترقية هذا الفن الجميل فان السلطان الغازي محمد الثاني لمَّا فتح القسطنطينية استجاب من فارس قوماً من الصنَّاع زيَّنوا بلاطهُ المعروف بالسراية القديمة بضروب الخزفيات الملوَّنة . ولمَّا انتهوا من العمل سكنوا رودس وتفنَّنوا في اصطناع خزفيَّات نفيسة تُباع حتى اليوم باثمان غالية . وقد انشأ السلطان عينهُ في ازنيق (نيقية) معملاً للقاشاني اتخذت مصنوعاتهُ لنقش جوامع الاستانة العليَّة . ثمَّ صار التقدم بعد ازنيق لمدينة كوتاهية في ولاية بروسة وكان صنَّاعها الخزفيُّون من ذوي الخبرة والذوق راجت اعمالهم في انحاء الشرق في القرن السابع عشر وساعدهم على اتقانها وجود منجم من الكاولين في جوار المدينة وكانوا يصطنعون القطع الجميلة الملوَّنة باشكال الزهور والاغصان مع ضروب الاصباغ والالوان فيركبونها تركيباً عجيباً يأخذ بمجامع القلوب ويفتن الابصار وما يُرى منها اليوم في معاهد الاستانة يزورهُ الزوَّار ويقضون منهُ العجب . ومعامل كوتاهية بقيت الى زماننا وقد عرض اصحابها امثلةً من خزفيَّاتهم في معرضي باريس (سنة ١٨٦٧) وڤينَّة (١٨٧٣) ونالوا عليها الامتيازات الفاخرة . وممَّن سعوا في توسيع نطاق هذه المعامل وتجهيزها بالادوات الحديدية واغناء مصنوعاتها صاحب العزَّة حمدي بك مدير المتحف الهمايوني . وقد أنشأ في دار الخلافة العظمى معملاً تصطنع فيهِ آنية خزفيَّةً ملوَّنة بالوان زاهية وهي تركَّب من ارضٍ رمليَّة . وكذلك في حي أيوب عند قرن الذهب معامل خزفيَّة تُطلى بطلاء ابيض سميك ثم تُلصق عليها الاوراق الملوَّنة فترتسم عليها نقوشها

وقد عُرفت ايضاً مدينة « جناق قلعة » عند مدخل الدردنيل بخزفيَّاتها الملوَّنة كانوا يصطنعون منها انيةً على اشكال غريبة فيذهَّبون بعض اقسامها ويصبغونها بالالوان الناصعة لكن هذه المصنوعات قد قلَّت اليوم وكادت تبطل

وللعجم في عهدنا كما في الزمن القديم نشاط عظيم وهمَّة مشكورة في استحضار القاشاني والخزفيَّات المنقوشة لكنَّهم عدلوا الى الصناعة الحديثة لكثرة رواجها وان كانت المصنوعات القديمة اعظم شأناً واغلى ثمناً . وفي اسواق الاستانة ما لا يُحصى من اعمالهم الفخَّاريَّة الملوَّنة . ومعدَّل ما يدخل من الصيني والخزفيَّات من اوربَّة الى الممالك المحروسة في السنة نحو ١٤٠٠٠ صندوق تباع بثمن ١١,٠٠٠,٠٠٠ غرش وفي الختام نتمنَّى ان يعود اهل الشام الى فتح معامل للخزفيَّات وللصيني ايضاً فيحيوا هذه الصنعة

التي فاز اجدادهم فيها بشهرة مستفيضة فلا شك انهم اذا تعاطوها زاحموا فيها من سواهم ببراعتهم وجودة عملهم ان شاء الله

الخُلق والمشيئة

للدكتور حبيب افندي الدرعوني

رأينا ان ننقل لقرّاء المشرق فصلاً موضوعه الخُلق والمشيئة من كتاب حديث للسيو پول دومر رئيس مجلس نواب فرنسا سابقاً سمّاه « كتاب اولادي »

اما الكتاب فغنيٌّ عن الوصف بما حازه من الشهرة في عالم المطبوعات فلم تبقَ جريدةٌ الّا ونقدته واما الفصل الذي انتخبناه فني سردهِ مثالٌ عمّا جاء في هذا السفر الجليل من النصائح الاجتماعية السامية وفي موضوعه امثولةٌ يجدر بالمرء تعلّمها ويسهل عليه تشرّبها اذ يُستشفُّ من خلالها ان المؤلف يتكلم عن اختبارٍ وحُنكةٍ وخيرُ نصيح من كان متصفاً بالسجايا التي يأمر بها وبعيداً عن المعايب التي ينصرف غيرهُ عنها ولا قول انجع في قلب الانسان من قول يقرنهُ صاحبه بعمل. ومؤلف كتاب اولادي ممّن عُرفوا بقوّة المشيئة وثبات العزيمة وبهما ارتفع من حضيض الفقر الى ذروة المجد

ويجدر بنا قبل نقل كلام دومر ان نأتي بشيء عن الخلق في حدّهِ وتعريفهِ فنقول: ان النفس البشريّة بسيطةٌ في تركيبها غير ان لها صفات وحالات تختلف باختلاف الاشخاص. وهي كيفيّات نفسانيّة مبنيّة على قوّة الفكر وقوة الاجسام وقوّة العمل وتكون هذه القوى متفاوتةً في درجتها متباينةً في تصويب عزمها وقد تكون في الاحداث استعدادات خلقيّة مختصّة بهم غير انها تنمو وترتقي تبعاً للوسط ولاحوال الحياة او بمجرّد امتثال ذلك الولد وقوّة مشيئتهِ وهي تختلف بالكم والكيف. فيتولّد من مجموع تلك الاختلافات الناتجة من الاستعداد الفطري او الميل او العادة

(١) (Paul Doumer: *Livre de mes Fils.*)